

سادساً: منافع السعي بين الصفا والمروة

ورد في صحيح البخاري عن ابن عباس قصة شرعية هذا السعي، وهو أن إبراهيم - عليه السلام - لما ولد له إسماعيل من حاريته هاجر التي هي أم إسماعيل، وقد كانت أمة وكانت قد وهبها ملك مصر لزوجته سارة فوهبتها لإبراهيم فولدت له إسماعيل - عليه السلام - فلما أن ولدت إسماعيل غارت سارة امرأة إبراهيم منها، فقالت: أبعدها عنِّي، فجاء بها حتى أنزلها عند البيت ولما تركها، ترك عندها جراب ماء، وجعلت تشرب منه، فلما أن نفد عطشها، فذهبت تطلب من يُغيثها، فعند ذلك صعدت على الصفا ونظرت، فلم تر شيئاً، ثم سعت حتى وصلت إلى المروة ثم رجعت من المروة إلى الصفا حتى كملت سعة أشواطه. وبعد ذلك - بعدها أكملت سبعة الأشواط - جاءها الملك فيبحث بعقبه فنبع ماء زمزم من آثاره، فقال لها: (لا تخافي، فإن هنا بيتك تعالى بينيه هذا الغلام وأبواه). قال النبي - صلى الله عليه وسلم - { فلذلك سعى الناس بينهما } صحيح البخاري (3364). ولا شك أن الصفا والمروة من شعائر الله، كما بين الله تعالى ذلك فقال: { إن الصفا والمروة مِنْ سَعَائِرِ اللَّهِ } . كما أن الله سمي مزدلفة المشعر الحرام في قوله تعالى: { فَادْكُرُوا اللَّهَ إِنْدَ الْمُشْعَرِ الْحَرَامِ } .
وسمى جميع المناسك شعائر في قوله: { وَمَنْ يُعَظِّمْ سَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْفُلُوبِ } . وشعائر الله هي العلامات التي أمر بتعظيمها. ونحن إذا سمعينا بين هذين المشعرين - الصفا والمروة - فإننا نعبد الله تعالى ونعظمه: فلأجل ذلك فإن الذي يسعى أول ما يبدأ به ذكر الله تعالى، ثم بالتلحيم، ثم بالتهليل، ثم بالتعظيم، ثم بقراءة القرآن: { إن الصفا والمروة مِنْ سَعَائِرِ اللَّهِ } ثم بعد ذلك يبدأ في السير متوجهًا إلى المروة يسير أو يسعى، كل ذلك لا شك أنه عبادة وقربى، وكله ذكر لله. وهكذا المشاعر كلها ذكر لله سبحانه وتعالى، رُوي عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: إنما جعل الطواف بالبيت، وبالصفا والمروة ورمي الجمار؛ لإقامة ذكر الله) أخرجه أحمد في "المسندي" 6/64، وأبو داود (1888) من حديث عائشة رضي الله عنها. أي أنها كلها تذكر بالله، وتبعث على ذكر الله سبحانه وتعالى، فالذين يطوفون في حالة طوافهم يذكرون الله، والذين يسعون في حالة سعيهم يذكرون الله، ولا يذكرون غيره، ولا يبغون سواه، ولا يضرّون إلى غيره. ولا شك أن ذلك كله يؤكّد أن هذه المشاعر أو هذه المناسك شرعت لإقامة ذكر الله، ولتجديد عبادة الله بقيّة ولترسيخ أصل العبادة في القلب؛ حتى يحب العبادة محبة راسخة، ومحبة ثابتة لا تتزعزع، وحتى يثبت على عبادة الله بقيّة حياته، ويرجع إلى بلاده وقد تأثر بهذه العبادة؛ فهذا هو السبب في شرعية هذه العبادة، وشرعية جميع العبادات.